مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الأول ـ المجلد الثامن والثلاثون
بغداد
رجب ١٤٠٧ هـ ـ آذار ١٩٨٧ م

جهود ابن كمال باشا في اللغة العربية

الدكتور رشيد عبد الرحمن العبيدي
كلية التربية ـ جامعة بغداد

في عام ١٩٦٩ كنت أحد أعضاء الوفد التدريسيّ الذي أوفدته جامعة بغداد للتدريس في القطر السعودي ، لثلاثة أعوام متتالية ، وكان نصيبي أن اكون مدرساً للنحو وفقه اللغة في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة . فوجدت نفسي في مكان تطمح إليه انظار الناس روحياً ، كما تطمح اليه أنظار الباحثين والمعنيين بتراثنا العربي والإسلامي العريق . فمكة المكرمة ليست قبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها فحسب ، ولكنها قبلة العلماء ورواد المفكرين الذين يفتشون عن كنوز الفكر الإسلامي ، وما أنتجته قرائح الادباء والعلماء من بناء مجدنا الحضاري والفكري والعلمي ، بما حوته من آثار جليلة ، وما جمعته من مخطوطات عربية في كل مجالات الفنون والعلوم ، في مكتبتها العريقة الشامخة ، مكتبة الحرم المكي الشريف.

ولقد قضيت أوقاتاً طويلة ، أتجول في قاعاتها ، وأنتقي من كنوزها المخطوطة ، وأطّلع على آثارها العظيمة ، وأقرأ في صفحات كتبها ، ومجاميعها المتعددّة . فكان ممّا لفت النظر ، وجلب الانتباه أن هذه المكتبة لاتكتفي بتقديم نسخة أو نسختين من كتاب مخطوط يعجبك ، أو تجد فيه أهمية علمية مرموقة ، بل تجد ـ أحياناً ـ العشرات من النسخ لكتاب واحد أو رسالة في جانب علمي أو فكري أو أدبي .

وكان أبرز من لفت نظري من العلماء المتقدمين ، ممن تُعْنى المكتبة بمؤلفاته ورسائله وتحقيقاته هو (أحمد بن كمال باشا) المتوفّى (سنة٩٤٠هـ) أحد أعلام القرن العاشر الهجريّ ، الذي أنجبت به الدولة العثمانية ، وهو أحد أبنائها من العلماء المسلمين الاتراك ، صاحب الفضل المتميز على اللغة العربية في ذلك القرن الذي شهدت ألسنة المتكلمين بالعربية فيه انحداراً غريباً ظهر في نتاج الكتاب والمؤلفين ، من الخاصة والعامة في بلاد الترك .

كان هذا الرجل شديد الحرص على سلامة اللغة ، وصيانتها من الانحراف والزلل والخطأ واللحن والتوليد .

ولست أريد هنا أن أتحدث عن نشأة هذا العالم الجليل ، ومسيرته من عهد الطفولة الى عهد الكهولة ، ومن طور الأخذ والتلقي الى طور الأستاذية والمشيخة ، ومن طور القراءة والتتبع الى طور الكتابة والتأليف ، ومن حياة التقليد والمحاكاة للعلماء الأفذاذ الى حياة الظهور العلمي ، وبروز الشخصية ، وأصالة الأفكار والمنهج بين أقرانه من علماء العصر .

فيكفي هذا الرجل فخراً أنه كان « ابن ذوات » ، كان أبوه أحد المقربين الى السلطنة العثمانية يومئذ (١) . وكان يكفيه أن يعيش في كَنَف أسرته الغنية غير عابئ بعالم ، ولا مجهد لفكر ، ولكنه لم يرتض هذا النمطَ من العيش ، فكانت همته الطموح .. تدفعه الى أن يعيش إنساناً آخر ، غير ما درجت عليه أسرته . إنه كان يريد أن يكون معدوداً في رجال العلم والمعرفة ، محسوباً في الذّابّين عن اللغة العربية ، الصائنين لأصالتها ، المحافظين على فصاحة الألسنة الناطقة بها ، وان كانت هذه الألسنة غير عربية ، وفي وسط يتكلم أهله بلغة أخرى ويتواصلون بغير لغة القرآن .

(*) المجلة : هذا موضع احتراز ، والكاتب قد ناقضه في آخر مقالته

(١) انظر : الكواكب السائرة : ١٠٧/٢ وهدية العارفين : ١٤١/١ .

فكان ذلك كله مدعاةً الى أن يتجه الشاب المتحمس صَوْبَ علم العربية ، وآدابها وتراثها ، ليكون واحدا ممَّن له الأثر في مسيرة هذه اللغة وحياتها الطويلة خلال أجيال وأجيال .

وكانت الفرصة قد واتته عندما رأى الاحتفاء الكبير بذلك الشيخ المهيب في قصر السلطنة — (المولى لُطْفي) — وهو يدخل محترماً فيقوم له كل من في المجلس إجلالاً وتقديراً ، ويسأل الشاب (ابن كمال) أحدهم عن الداخل ، فيقال له : إنه (المولى لطفي) (٢) ، ويزيده المسؤول معلومة مهمة في حياته ، تلك هي : أن للعلماء مكانة كبيرة عند السلاطين والأمراء في الدولة العثمانية . فتجد هذه الكلمة في نفس الشاب الطموح مكانها ، وتؤثر فيها ، مما تجعله يندفع بحرارة وتصميم الى والده ليطلب منه تلقي العلم على علماء عصره — ولا سيما (المولى لطفي) — ، ليبلغ هـذا المبلغ ، وليرتقي هذه المنزلة التي لمسها بيديه ، وادرك قيمتهـا بعقله وحسه وذوقه . وما كان من والده الا ان يبذل له ، ويستجيب لطلبه ، ليصبح بعد زمن من القراءة والتعلم ، والحفظ موسوعة لأكثر من علم وفن ، فملازمته للمولى لطفي والمولى القَسْطَلاني وخطيب زاده ، ومعروف زاده ، وغيرهم من علماء الأتراك المختلفي المعارف ، جعلته يتقن أكثر من علم ، كما يتقن اكثر من لغة الى جانب لغته القومية . وهي التركية — كالفارسية والرومية ، فضلاً عن تمرسه في العربية : لغة الدين والتشريع ، والمؤلفات العظيمة في القرآن والحديث والأدب واللغة والنحو والبلاغة والطب وجميع اصناف المعارف والفنون .

ولم يكن بروزه في حياته بهذه الجوانب المشرقة من تاريخ العربية وآدابها فحسب ، بل عين في أكثر من منصب علمي وإداري في الدولة ، فكان مدرساً وقاضياً ومفتياً .. حتى أُطلق عليه لقب « شيخ الإسلام » .

(٢) انظر : مجلة الدراسات الاسلامية : عدد : ٥ سنة : ١٣٩٣ هـ ص : ٣١١ .

وفي خلال حياته الزاخرة بالعطاء ، ألف في مختلف الفنون ، ولم يألُ جهداً في أن يقف على جملة من الكتب المتقدمة ، لينتقد ، ويستدرك ، ويعقب ، ويحقق ، ويشرح ، ويعلق ، ليقوّم ما وجد من خلل ، ويعدّل ما بان له مَن زيغ في بعض مذاهب من تقدَّمَه من علماء عصره في بلده ، أو علماء المسلمين المتقدمين : كتعليقاته على الكشاف للزمخشري (ت ٥٣٨هـ) ، وتعليقه على شرح الطوسي لكتاب الإشارات لابن سينا ، وحاشيته على كتاب التلويح للتفتازاني ، وشرحه لمشارق الأنوار للصغاني (ت ٦٥٠ هـ) ، ومصابيح السُّنّة للبَغَوي ، والهداية للمرغيناني ، والقصيدة الخمرية لابن الفارض ، وغيرها .. لست أريد أن استقصي ذكرها ، لأن مؤلفاته قد جاوزت المئة حتى بلغت المئة والأربعين كتاباً ورسالة تقريباً .

ولعلنا نستطيع هنا أن نشير بإيجاز الى أبرز الجوانب المميزة لاتجاهه التأليفي في عموم المعارف والعلوم .

اولا ـ التحقيقات :

أبرز ما تميز به ابن كمال باشا ، هو وقوفه على قضايا دقيقة مما أشكل على [بعض] المتقدمين أمره ، أو كثر الاختلاف فيه بينهم ، سواء أكانت هذه المشكلات في اللغة أم في الفكر . وسواء أكانت في المنقول أم المعقول (٣) ، فمن ذلك ـ مثلا ـ (تحقيق معنى « كادَ ») ، وقد يرد في بعض نسخ مخطوطة هذه الرسالة باسم : (تحقيق وضع « كاد ») . وقد نشرتُ هذه الرسالة سنة : ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م . في مجلة كلية الدراسات الإسلامية التي صدر منها خمسة أجزاء ـ ببغداد في الجزء الخامس منها . يعرض (ابن كمال) في هذه الرسالة للاختلاف الذي وقع بين النحويين في تفسير استعمالاتها في القرآن والشعر

(٣) في مكتبة الشيخ عبدالقادر الكيلاني مجموعة من رسائله في التحقيقات ، المجموعة ١٤١٩ ومجموعة : ١٤٢٣ و ١٤٤٢ و ١٤٤٧ و ١٤٤٨ ـ ١٥٠٠ .

والنثر ، ويستشهد لذلك كله بالكلام العربي الفصيح ، متخذاً من كتب المتقدمين وكتب التفسير مصادر ومراجع له في تحقيقها .

ومن رسائله في هذا المضمار رسالة « تحقيق معنى الأيس والليس » . ومن هذه الرسالة نسخ في مكتبة الحرم المكي الشريف ، ورسالة تحقيق مقالة القائلين بالحال ، ومنها نسخ ـ كذلك في المكتبة المذكورة (٤) . ورسالة تحقيق القول « ان الشهداء أحياء » ، و « تحقيق الميزان » ، و « تحقيق المعجزة للانبيـاء ـ ع ـ » ، و « تحقيق حقيقة الجسم » ، و « تحقيق المُشاكلة » ، وغيرها الكثير .

ثانياً ـ التعليقات والحواشي :

ووقف ابن كمال باشا على مسائل ، وجد أنها تحتاج الى تعليق أو حاشية موضحة في كتب التفسير والعقائد والفلسفة والمنطق والجدل ومن ذلك وقوفه على مسائل في الكشاف للزمخشري ، وتعليقه عليها ، وكتعليقه على شرح الطوسي لكتاب الإشارات لابن سينا ، وحاشيته على التلويح للتفتازاني ، وغيرها .

ثالثاً ـ في الشروح والتلخيصات :

وله في هذا الجانب كتب ورسائل كثيرة في مختلف المعارف . فمن ذلك كتابه « شرح الفوائد » ، وقد يذكر باسم « فرائد الفوائد » (٥) ، وشرح الأربعين النووية للامام النووي (ت ٦٧٦ هـ) ، وشرح قصيدة ابن الفارض الخمرية . وشرح المقالة المنسوبة الى عضد الملة والدين ، وقد تسمى باسم « شرح المقالة المفردة لعضد الدين » ، و (شرح تغيرت البلاد ومَنْ عليها) وهي رسالة صغيرة في ورقة ، وفي بعض نسخها باسم « شرح مرثية آدم » .

(٤) مكتبة الحرم : ١٥١ / مجاميع .
(٥) هدية العارفين : ١/١٤١ .

نشرتها في مجلة البلاغ البغدادية عام : ١٩٧٥ م في الجزءين الخامس والسادس . ورسالة في « شرح قوله ، صلى الله عليه وسلم : « سأخبركم في أول الأمـــر » ، وغير ذلك مما قد يسمه بعنوان يدلُّ ظاهرهُ على أنه تعاليق أوحواشٍ ، ولكنه ينـــدرج في كتب الشروح ، كرسالتـــه على صحيح البخاري ، فهي شرح للجامع الصحيح للبخاري ؛ ورسالته في تصحيح لفظ الزنديق (*) ، وهي شرح للفظة وبيان أصلها .

رابعاً ــ في السير والرجال :

واهتم (ابن كمال باشا) بسيرة الرجال في تاريخنا الإسلامي ، ولاسيما سيرة الرسول الاعظم ، صلى الله عليه وسلم ، وسير الرجال وطبقاتهم ، ومن الامثلة على ذلك كتابه الموسوم بـ « أفضلية نبيّنا محمد ، عليه الصلاة والسلام» ، وكتابه « طبقات المجتهدين » (٦) ، و« كتاب تحقيق المعجزة للأنبياء عليهم السلام » . و « صورة فتوى في حقّ ابن عربي » ، وغيرها من الرسائل والكتب ، التي تناول فيها جانبا من جوانب الشخصيات العربية والاسلامية ، أو مجمل سيرتها ، كرسالته في أَبَوَي النبي ، صلى الله عليه وسلم ، مخطوطة الحرم برقم : ١٢٥/١١ ، ومنها نسخة في القادرية برقم ١٤٤٢ ، بعنوان « رسالة في إيمان أَبَوَي النبي ، صلى الله عليه وسلم » .

خامساً ــ في تفسير القرآن وسوره وآياته :

ولابن كمال باشا رسائل وكتب كثيرة في تفسير سور القرآن أو آيات بينات منه ، لأغراض مختلفة منها عَقَدية ومنها بيانية ، ومنها لغوية ، كما

(*) منها نسخة في القادرية ببغداد : مجموعة : ١٤٥١ واخرى في مجموعة : ١٤٥٠ .

(٦) انظر مجلة كلية الدراسات م ٥ / ص ٣١١ عام : ١٣٩٣ هـ . ومنه نسخة في القادرية مجموعة : ١٥٠٠ .

سبقت الاشارة الى آية الشهداء (٧) ، ورسالته في « تفسير سورة الملك » و « تسمية آية الكرسي سيدة الآيات » الموجودة في الحرم المكي برقم : ٤٥ ، وسبب ترك البسملة في سورة براءة » .. ورسالة في تحقيق المعجزة وبيان وجه دلالتها ضمن المجموعة القادرية برقم ١٤٧٨ .

سادساً ـ في العقائد والمذاهب الاسلامية :

ولابن كمال باشا باع طويل في العقيدة الإسلامية ، وفي أصول الكلام ، ومذاهب المسلمين وفرقهم . والمعروف أنه كان من أهل السنة والجماعة ، حنفيّ المذهب ، فكان لهذا الاعتقاد أثر كبير في توجهه في رسائله وكتبه التي ألفها في هذه الجوانب . فقد ردّ على المعتزلة بكتاب سمّاه « خلق القرآن » ، ووضع رسالة بعنوان « تقرير أن القرآن العظيم كلام الله ـ تعالى ـ » . وتنوعت موضوعات رسائله في هذا السبيل ، فتناولت فروع المسائل وأصولها ، فمن ذلك رسالته في « عدم نسبة الشر الى الله ـ تعالى ـ » ، ورسالة في معنى (الجعل) ، وهما في القادرية برقم ١٤٧/٥ . وفي « الوجود » في المجموعة نفسها ، و « حشر الأجساد » ، و « القضاء والقدر » (٨) ، و « بيان عالم الغيب » ، وغير ذلك . ولم يكتف بهذه الموضوعات ، بل ألف كتاباً باسم « العقائد » ، وآخر باسم « ميزان الأعمال » ، وغيرها . وهي كثيرة ، تكاد تكون متميزة من بين مجموعة أعماله الأخرى . وهذه جملة تدخل في هذا المعنى ، كرسالة الاستخلاف في الخطبة ، وتحقيق مقالة القائلين بأن الواجب موجب بالذات ، والقضاء والقدر .

سابعاً ـ في الحكم والمنطق والجدل وأدب البحث :

وهي موضوعات عقلية تعتمد على جهد المؤلف العقلي ، وآرائه الفلسفية

(٧) منها نسخة في مكتبة الحرم المكي الشريف برقم ١٤٨/١٤ .
(٨) منها نسخة في القادرية : مجاميع : ١٤٧٨ و ١٤٤٨ .

الخاصة في الحياة والعمل والعلم ، تدل على سعته ، وانطلاق آفاقه ونضج تفكيره ، ومن جملة ما عنده في هذه المضامير من رسائل ومؤلفات « كتاب آداب البحث » ، وكتاب « بيان العقل » ، و « ورسالة في تحقيق الخواص والمزايا » ، وأخرى « في تحقيق الشخص الانساني » ، ورسالة باسم « الميكل » ، وأخرى في « بيان أسلوب الحكم » ، و « مدح السعي وذم البطالة » ، وغيرها مما زخرت مكتبات العالم بمخطوطاتها الكثيرة .

ثامناً ـ في التصوف :

وله في قضايا الروح والتدين والتصوف الكثير من الرسائل والكتب ، وعلى رأسها (الرسالة الروحية) في التصوف ، وقد سبق أنه عني بشرح « قصيدة ابن الفارض الخمرية » ، وله « رسالة في بيان علم الغيب » ، ورسالة باسم « الاشارات اللطيفة » ، وأخرى باسم « أقسام المحبة » ، وأخرى باسم « علم الحقائق » ، ورسالة باسم « ميزان الاعمال » ، وكتاب « راحة الأرواح في دفع العامة عن الاشباح » ، و« دفع ما يتعلق بالضمائر والأوهام » .. وقد كان ابن كمال باشا يمثل العقل المجدد في عصره ، لما تميز به من تحرر واضح من الأوهام والخرافات التي آمن بها الكثير من العوام في عصره ، ودافع بحرارة العالم المؤمن عما كان يضمره أعداء الدين من دسائس ضده ، فألف في ذلك ما استطاع به أن يفضح المستور من الأحقاد والدسائس ، ككتابه « كشف الدسائس في الكنائس » ، وغير ذلك من الكتب .

تاسعاً ـ في القضاء والافتاء :

ولقد كان لموقع ابن كمال باشا من القضاة والمفتين في الديار التركية أثر في تصحيح الكثير من الأحكام والإفتاءات ، وحل المشكلات التي كان يعاني منها العامة ، وكان يأخذ على عاتقه بيان الصواب ، وتصحيح المفاهيم المنحرفة في أعراف العوام وتقاليدهم ، ولذلك رأينا له جملة صالحة من الرسائل التي

تناولت جوانب من معتقدات الناس ، وأمور الشريعة والفقه . فمن ذلك رسالته في « دخول ولد البنت في الوقت »(٩) ، ورسالته في فتوى بشأن « السَّماع وَدَوران الصوفية » في القادرية برقم : ١٤٤٧ ، ورسالته في « بيان الرضاع »، وأخرى في : (تحريم الخمر) وفي « بيان تحقيق الربّا » في المجموعة : ١٤٧٨ من المكتبة القادرية ، ورسالته في « جواز استيجار تعليم القرآن » ، وأخرى في « بيان الاستخلاف ». و« تحقيق الميزان » ، وسلسلة مجتمعة من من كتب المبسوط » في الفقه .

ويبدو أن مثل هذه الرسائل يؤلفها ابن كمال باشا في الردّ على سؤال ، أو استفتاء يوجّه اليه ، كما يظهر ذلك من معظم مقدمات رسائله .

عاشراً ـ في اللغات :

وفي مقدمة اللغات التي عالج البحث فيها اللغة العربية ، وتليها لغته التركية ثم الفارسية . وقد تناولت رسائله في اللغة جوانب مهمة ، وابرزها :

أ ـ قضايا اللحن والخطأ ، والانحرافات اللسانية في نحو اللغة .

ب ـ قضايا التعريب والتعجيم .

ج ـ تحقيقات لغوية متنوعة في أدوات اللغة وحروفها التي تأتي لمعان .

د ـ في البلاغة وفروعها .

وفيما يأتي جملة رسائله المتنوعة في هذه المجالات « رسالة في الأيس والليس » ، أو « الليس والأيس » ، ورسالة في « تحقيق معنى كاد » ، وقد تسمى : « شرح معنى كاد » ـ كما مرّ ، أو « تحقيق وضع كاد ، وطريق استعماله » ، كما ورد في النسخ المخطوطة المتعددة لهذه الرسالة .

ـ رسالة في تقديم الشرط على المشروط .

ـ رسالة في نسبة الجمع .

---

(٩) منها نسخة في القادرية / مجاميع : ١٥٠٠ .

— رسالة بعنوان « الاستعارة » .
— رسالة التعريب والتعجيم « نشرت مقدمتها في مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية — بمكة قبل ما يزيد على عشر سنوات ، ونشرها في العراق — كذلك — الدكتور أحمد خطاب عمر من جامعة الموصل .
— رسالة في بيان مزية اللسان الفارسي على سائر الألسنة ما عدا العربية ، منها نسخة في القادرية برقم ١٤٧٨ .
— رسالة في تحقيق المشاكلة .
— رسالة في « اللفظ الذي نريد به غير المعنى » .
— رسالة في « خطاب الواحد خطاب الاثنين » .
— رسالة في « تقسيم المجاز وتحقيق اقسامه » منها نسخة في القادرية برقم ١٤٧٨ — مجاميع ، الى غير ذلك من الرسائل الكثيرة ، لست اريد أن أقدم إحصاء لها ، ولكنني سردت هذه الجملة للتدليل على عناية الرجل بأمور اللغة ، وبدراساتها المختلفة ، وموضوعاتها المتنوعة ، وقد كان في جميع ذلك مبرزاً ضاهى أئمة علم العربية ، وكان ذا أصالة واضحة في بحثه ، غير مقلّد ، ولا محتكر لرأي أو فكرة ، يناقش بثقة العالم المثقف ، ويسرد الأمثلة والشواهد الرّصينة مما جعل العلماء من بعده يأثرون به ، ويسيرون على خطاه فيما رصد من ظواهر اللغة ، وما خرج به من آراء ، كما سنرى ذلك عند ابن بالي القسطنطيني (ت ٩٩٢ هـ) صاحب كتاب « خير الكلام في التقصّي عن أغلاط العوام » (١٠) .

وهذه جملة رسائل أخرى لم نشر اليها فيما تقدّم ، نقرن ذكرها بمجموعتها التي وجدت فيها :

— مجموعة برقم ١٤١٩ في المكتبة القادرية ببغداد فيها رسائل .

(١٠) نشره الدكتور حاتم صالح الضامن ، سنة ١٩٨٣ ، في بيروت .

مجموعة برقم ١٤٢٣ في المكتبة القادرية ببغـــداد فيها رسالة باسم « الاصلاح والإيضاح » في سبع ورقات ، وهي الرسالة العاشرة فيها .

- مجموعة برقم ١٤٤٢ فيها رسالتان سبق ذكرهما في ذم البطالة ومدح السعي ، والثانية في إيمان أبوَي النبي . والرسالة الأولى منها نسخة ثانية في المجموعة ١٤٤٨ .
- مجموعة برقم ١٤٧٨ رسالتان بعنوان (تحقيق مقال القائلين ـَ ، وهما الرسالة ١٢ و ١٤ . من المجموعة .
- مجموعة الحرم المكي برقم ـ ١٥١ مجاميع ـ وهي كبيرة زادت على الخمسين ، منها :
- تحقيق القول أن الشهداء أحياء ، في تفسير قوله ـ تعالى ـ « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياءٌ عندَ ربّهم يرزقون » .
- ورسالة باسم « التوسع الشائع » .
- ورسالة باسم « اذا تخيرتم في الأمور » .
- رسالة في الفرائد برقم ٣ / ١٠١ .
- رسالة باسم (الهيكل) برقم ٢٢ / ١٥٠ .
- رسالة باسم (الفريدة) برقم ١ / ١٥٠ .
- رسالة باسم (تحقيق الحواص والمزايا) برقم ٨ / ١٥٠ ، وغيرها .

كتابه التنبيه على غلط الجاهل والنبيه واهميته :

لقد شهد القرن الثاني الهجري حركة لغوية قوية ، مختلفة الاتجاهات والمرامي عني بعضها بإقرار قواعد اللغة وقوانينها ، وعني البعض الآخر برواية اللغة عن الفصحاء في بواديهم ، وعني الآخرون بوضعها في معجمات متنوعة . وكان من أبرز الأعمال اللغوية في هذا المضمار أن أخذ جملة من الباحثين اللغويين في رصد أساليب الخطباء والأدباء والكتاب والرواة والمقرئين والمحدثين

وسائر العلماء ، والوقوف على سقطاتهم وما يقع في ألسنتهم من انحرافات تشذ بهم عن جادة الصواب في قوانين اللغة وأصولها وصحيح قواعدها وفصيح اساليبها ، ومن هنا كان في جملة ما ألف من كتب اللغة في هـذا القرن ما يعرف بـ « لحن الخاصة » و« لحن العامة » ، ويراد من ذلك سائر الناس عالمهم وجاهلهم ، حتى كان اللغويون يقتنصون أخطاء بعضهم ويدونونها في كتبهم . فنقل الجاحظ أن أول لحن سمع من المشتغلين في مضمار اللغة قولهم « عَصاة » مكان « عصا » ورمي (هشيم) — راوية الحديث — بأنه لحانة ، ونبّه الحجّاج الثَّقفيّ الى لحنه في القرآن ، فكان من مجموع مثل هذه السقطات واللحون أن جمع الكسائي (ت ١٨٩ هـ) كتاباً في لحن العوام ، وتبعه أبوعبيدة معمر بن المثنى (ت٢١٣هـ) (١١) ، ثم كان المازني (ت٢٤٩هـ) (١٢) ، والسجستاني (ت ٢٥٧ هـ) . وابو بكر الزبيدي الأشبيلي (ت ٣٧٩هـ) ، (١٣) ، وغيرهم .

وكانت مثل هذه المجموعات الراصدة تمثل لغة العصر الذي يعيش فيه المؤلف ، كما تمثل التطور الذي يصيب اللغة ، وهي تحتك باللغات المجاورة فتؤثر وتتأثر ، وتعطي وتأخذ ، وكانت وظيفة علماء اللغة هي :

أ — التنبيه على الغلط وتمييزه من الصحيح .

ب — الرجوع بالألسنة والأساليب الى الصحيح من اللسان العربي وأساليبه ، وتطبيق قواعد اللغة ، والمطالبة بتنفيذ أقيسة اللغة ، ورفض ما سواها من الدخيل .

ولذلك كثر في أساليب التأليف عندهم أن يقولوا : « تقول العامة كذا... » . والصواب « أن يقال . . كذا » أو « شاع في لسان الناس قولهم » ، « والقياس : كذا . . » ويبدو ذلك واضحا فيما وصل الينا من كتب « لحن العامة » للزبيدي ، و « درة الغواص » للحريري (ت ٥١٦ هـ) ، و « تكملة ما تلحن فيه العامة »

(١١) معجم الأدباء / ياقوت ، ط مرغليوث ، ٢٣٥/٧ .
(١٢) ينظر كتابنا : ابو عثمان المازني — ط ، بغداد ، مبحث مؤلفاته .
(١٣) طبع في القاهرة .

للجواليقي (ت ٥٤٠ هـ) ، و « والتنبيه على غلط الجاهل والنبيه » لابن كمال باشا ، وشرح درة الغواص لأبي الثناء محمود بن عبد الله الألوسي (١٢٧٠هـ) ، وغير ذلك من الكتب .

وكما كان المتقدمون يمثلون صرامة القانون اللغوي وحديّته في التطبيق ورفض الخروج على الأصول ، كان المتأخرون يبدون أشد صرامة وأقوى تطبيقاً لقوانين اللغة وأحكامها ، ولذلك كثر في أحكامهم القسوة والنقد اللاذع والسخرية من الذين يقع في كلامهم الغلط والتخبط . وكان ابن كمال باشا أوضح من الآخرين في أسلوبه الساخر الناقد ، فقد كان يصف المخطئين بالضلالة والجهل والتخبط والحيرة ، « لانه كان يجد في بعض كلامهم تخبطاً حائراً لايستقر على وجه ثابت صحيح من أصول اللغة وأقيستها الفصيحة المعروفة » (١٤) ، من ذلك قوله مثلاً : « وأما الذي استعمله الجهال فيما بينهم ، فإنما زادوا به شَيْنَهم » (١٥) . ونال ممن ادعوا العلم في عصره ، فقال :

« ثم إني لما رأيتهم لا يحومون حول الرشاد ، ولا يذرون ما هم عليه من العناد ، وجدت للطعن فيهم مجالا ، فقلت بديهة وارتجالا :

الى الله أشكو البائعين بجهلهم فنون المعاني بالدعاوى الكواذب
بتحريك رأس بعد لبس عمامة وغَمْز بعين ثم رمز بحاجب (١٦)

وقال مستغرباً ما يفعله الناس في اللغة حين يقعون في التناقض ، ولا موجب له : « — ولا ينقضي عجبي من هؤلاء القوم ، يشدّدون المخفف ، ويخففون

(١٤) مجلة المورد ، العدد الخامس — القرن الخامس عشر / ١٩٨١ : ص ٥٥٢ كتاب (التنبيه) بتحقيقنا .
(١٥) التنبيه : المقدمة ٥٥٥ .
(١٦) نفسه ، ص ٥٥٧ .

المشدّد ، كأنهم جبلوا معكوسين » (١٧) .

وقال : « والحافون يستعملونه بالمعجمة لعدم زوال الكزازة عنهم »(١٨) ، الى غير ذلك من الأحكام القاسية ، والنقدات اللاذعة .

والحق أن (ابن كمال باشا) لم يستخدم هذا الأسلوب النقدي إلاّ في الأخطاء التي توجب ذلك ، وإلا فإنه يكتفي في الكثير الغالب ببيان وجه الخطأ ، أو الإشارة الى أنه لحن ، ويعلل – أحياناً – سبب الوقوع في الخطأ واللحن ، كما ترى في خطأ الناس تسمية (كعب الأحبار) بـ (كعب الأخبار) ، قال : « لكثرة ما يرويه من الأخبار وهو وهم » . (١٩)

وكقوله في جملة أغلاط يقع فيها الناس : « وسببه عدم الالتفات الى ما يخرج من أفواههم ، كأنهم غير مؤاخذين به ، وإلا فكيف يخفى على العاقل أمثالها » (٢٠) .

إن مثل هذه الأحكام والتقريرات التي يطلقها ابن كمال باشا) على ما يخطئ فيه الخواص والعوام من اللغة ، تدل بشكل واضح على الأصالة في المنهج ، وقوة الشخصية ، والسعة في المعرفة ، والثقة الكبيرة بما يمتلك من علم اللغة العربية . ومما يدلنا على هذه الثقة بعلمه ، قوله فيمن يفتح لام (مُسَيْلِمة) : « ان لفظ مُسَيْلِمة – بكسر اللام : تصغير مسلمة ، واسم للكذاب المشهور ، فمن يقولها ، بِفَتْح اللام – ويدعي الصحة – اكذب منه » (٢١) .

ومما يدلنا على (أصالته) في هذا العلم ، وصحة اتجاهه الخاص فيه ، قوله وهو يخطّئ من يكسر جيم (الترجمة) ، أو يضمها : « وما شاع بين

---

(١٧) نفسه ، ص ٥٦٦ .
(١٨) نفسه ، ص ٥٧٥ .
(١٩) نفسه ، نفسه رقم ٢٩ .
(٢٠) نفسه ، ص ٥٨٢ .
(٢١) التنبيه ٥٨٣ .

الناس من ضم الجيم خطأ ، وقد سمعت هذه اللفظة من بعض الأماثل ، فشددت النكير عليه ، ففكر زماناً ، ثم أدى رأيه الى أنها بوزن : الفعلة كتبصرة ، فاستحييت ، ووددت أني لم أساله عنها » (٢٢) .

ولعل ما رصده (ابن كمال باشا) يمثل بصدق ما اشتهر بين جيله من أخطاء ، وهي مهمة ذات قيمة علمية من مهمات البحث في اللهجات الشعبية المتولدة عن العربية السليمة ، ومن المعروف ان (ابن كمال باشا) قد عاش بين أبناء قومه الترك ، وكان لابد « أن يجد من الخطأ اللغوي واللحن والانحراف في اللسان والكتابة الكثير ، غير أن ما رصده هذا الرجل من الأخطاء قد تعدى المئة بقليل ، وهو عدد ضئيل اذا ما قيس بالكتب المؤلفة في هذا المضمار . وهذه قضية تدل على أن العناية بالعربية في زمن دولة الأتراك الاسلامية ، كانت تمثل مكاناً مهما ، وذلك أنها لغة الدين والقرآن وحديث النبي والشعر العربي وآداب العرب المسلمين . وكانت العناية بهذه الفنون والمعارف واضحة في مؤلفات القوم قبل (ابن كمال باشا) وبعده ، فضلا عن عشرات الكتب التي ألفها الرجل نفسه . وكان (ابن كمال باشا) يعترف بتأثير اللغة الأعجمية في لسان المخطئين حين يعلل بـ « أن أهل بلاده تلقنوا هذه الكلمة من أبناء العجم ، وهو مفتوح الهمزة في لسانهم » (٢٣) .

إن أصالة (ابن كمال باشا) فيما ألف جعلت علماء اللغة بعده يسطون على أقواله ، ويقفون على نقده واستحسانه ، ويودعون كتبهم نصوصاً منتخبة منه .. ولعل ابن بالي القسطنطيني (ت ٩٩٢ هـ) خير مثال على ما نقول ، فكتاب (ابن بالي) : « خير الكلام في التقصي عن أغلاط العوام » (٢٤) ، أورد نحو ٢٢٣ مفردة أو عبارة مما يخطئ فيه العوام في الشكل أو الدلالة ، ولكن ما

(٢٢) نفسه ٥٦٩ .
(٢٣) التنبيه ٥٦٥ .
(٢٤) التنبيه : ٥٦٥ .

يقرب من ربع هذا المقدار من الأخطاء مستمد من « كتاب التنبيه » ، بلا احالة ، غير أنه (ابن بالي) أشار في ثلاثة مواضع من كتابه الى (بعض الأفاضل) ، أو (بعض الفضلاء) ، ويريد به (ابن كمال باشا) من غير تصريح .

ومن الأمثلة على ذلك قول ابن كمال باشا في « الإباء » : يزيدون فيه الياء فيقولون الايباء ، وكأنهم يظنونه من الأفعال ، وليس كذلك . وقد نظمت في هذا ما يدلهم على الصواب ، ويعينّ بابه من الأبواب ، فقلت :

أخو الجهل الموقر لايبالي
أينطق بالخطا أم بالصواب
وأما من له عقل سليم
أبى يأبى إباءً فهو آبي (٢٥)

فأخذه (علي بن بالي) في خير الكلام وأوجزه ، وأضاف في أوله قوله : « ومن أغلاطهم الفاضحة لفظ (الأيباء) والصحيح (الإباء) ، وهو مصدر أبي بأبى » (٢٦) .

ومن ذلك أيضاً ما نقله ابن بالي في (الإباقة) ، و (أم غيلان) ، و (كعب الأحبار) . و (السحور) . و(الباور) ، و (البشارة) ، و(البرية) ، و (ابن يامن) وغيرها الكثير .

والواضح من نقل ابن بالي أنه يحاول إيجاز عبارة ابن كمال باشا دون الإخلال بأفكارها ومضامينها . ففي تفسير لفظة (أم غيلان) أورد ابن بالي : أنهم يقولون « مُغيلان » للشجرة التي تنبت في بوادي الحجاز ، ونقل من

(٢٥) طبعه ببيروت الدكتور حاتم الضامن ـ مطبعة مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

تصحيحها ، وأنها : شجرة السمُر (٢٧) . وهذا كله مضمون عبارة ابن كمال باشا . ولكن ابن كمال باشا لم يكتف بهذه الفوائد ، بل استطرد على وَفْقِ منهجه في التفسير ، الى فوائد مهمةٍ أخرى ، كنقده المخطئين بأنهم « ان زعموا أنه صح بكثرة الاستعمال ، وصار كأنه من الالفاظ الأعجمية ، قلنا : قد عرفت أن كثرة الاستعمال لا تخرج الغلط عن الغلطية . فإن سلم ، فلا أقل من معرفة الأصل وعروض التحريف . وان ادعوا أن سبب استعماله وخفته على اللسان ، قلنا : فلم تقولون في (المقياس) أم القياس ، مع أنه أخف وأصح . وبالجملة لا يعذر أهل العلم في هذا » (٢٨) . وباقي كلامه أورده ابن بالي .

ويحـاول ابن بالي صرف النظر عن نقوله من ابن كمـال باشا حين ينقل من مصدر آخر في تصحيح المفردات . فاذا نقل ابن كمال باشا من الصحاح للجوهري ، نقل هو من القاموس المحيط ، وقدمّ وأخر وحذف من العبارة لتكون بعيدة شيئاً مّا عن كلام المنقول منه ؛ قال ابن كمال باشا :

« ومنها لفظ الإباق : يزيد فيه أكثر الناس تاء ، فيقولون : الإباقة ، زعماً منهم أن اللفظ من باب الافعال ، وقد غيره الإعلال ، كالإفاقة ـ مثلا ـ لكنه من الثلاثي ، والهمزة أصلية ، قال في الصحاح : « أَبق العبد

فقال ابن بالي : « ومن أوصافهم للفظ الإباقة ، زعماً منهم أنه من باب الأفعال كالإفاقة ، وهو ثلاثي . في القاموس أبق العبد ، كسمع وضرب ومنع ، أبْقاً ، ويحرّك وإباقا » (٣٠) .

لقد كان على (ابن بالي) أن يشير بصراحة الى الأخذ من ابن كمـال باشا

(٢٧) خير الكلام ٢١ .
(٢٨) التنبيه ٥٦٣ ـ ٥٦٤ .
(٢٩) نفسه ٥٦٢ .
(٣٠) خير الكلام ٢١ .

لأن ابن كمال باشا هو السابق ، وهو الاكثر أصالة في بحثه ، وطرح آرائه وبيان مذهبه ، كما يبدو من خلال شروحه وتفسيراته .

مصادر ابن كمال :

تنوعت مصادر ابن كمال باشا بين :

١ — المعجمات ، كالقاموس للفيروز آبادي والصحاح للجوهري .

٢ — التفاسير ، كالكشاف للزمخشري .

٣ — وكتب الأخبار والأدب وتاريخه ، كالمعلقات الشعرية ودواوين الشعر .

٤ — وكتب النحو واصول اللغة ، ككتاب سيبويه والمفصّل للزمخشري .

٥ — واضافاته الخاصة مما سمعه من أبناء زمانه من أخطاء أو قراءة في كتبهم ، أو ما صنّعَ من شعر خاص به يصحح به الأخطاء أو ينبه على الغلط . ومن شعره قوله في وهم الناس بلفظة (الأوان) (٣١) :

أننكر لحن أبناء الزمان
ووَهْم الناس في لفظ الأوانِ
ولو حاولتَ للأوهام رَصْداً
اذنْ ضاقت عن البعض الأواني

ومن اشاراته الى أصحابه في زمنه ، قوله في مصدر (فرغ) : الفراغ والفروغ : « وذكر في الصحاح له هذين المصدرين ، ولم يسمع الفراغة — بالتاء — الا من أصحابنا » (٣٢) .

٦— وقد يشير الى كتب اللغة من غير تحديد . وعلى الجملة فان مصادر ابن كمال باشا كما تبدو لم تكن كثيرة ، وذلك لاعتماده على قدرته اللغوية ،

---

(٣١) التنبيه ٥٦٤ ، لفظة برقم : ٨ .
(٣٢) نفسه ٥٩٠ ، لفظة برقم : ٨٣ .

وثقافته الخاصة ، وليس ذلك بكثير عليه ، وهو المطلع العالم الحافظ المتنوع .

كلمة اخيرة :

يبدو لنا من خلال عناية (ابن كمال باشا) اللغوية — ولاسيما العربية — أن العصر الذي عاش فيه هذا الرجل ، لم يصب بآفة قاتلة للعربية كما كنا نظن (*) ، وأن اللحن الذي رصده ، والأخطاء التي كان يسقط فيها الناس في مجتمع يتكلم باللغة القومية — وهي التركية — لاتعد شيئاً ذا بال ، اذا ما قيست بالأخطاء التي نقلتها لنا كتب العصور الاسلامية المتقدمة ، كعصر الحريري (ت٥١٦ هـ) في (الدُّرة) ، أوعصر الزبيدي الأشبيلي (ت٣٧٩ هـ) في (لحن العامة) في الأندلس . ولعل السبب يرجع الى ردة الفعل التي كان يشعر بها الترك ، وهم يدينون للقرآن الكريم ، ويؤمنون بالإسلام شرعةً ومنهاجاً في حياتهم مما جعلهم يعنون بلغة التشريع والدين ويحافظون عليها ، ويتسابقون في الدفاع عنها وصيانتها ، وهذا هو الواقع الملموس بالنسبة لجميع المسلمين المخلصين من غير العرب المحبين للعربية وأهلها ، فنحن واجدون اليوم منهممن يتقن العربية ، ويكتب بها أفضل من الكثيرين من أبناء الضاد .

والأغلاط التي اشار اليها (ابن كمال باشا) و (ابن بالي) وغيرهما من باحثي الاتراك ، ليست وقفاً — كذلك — على (علماء الأتراك وجهالهم) ، بل إن الكثير منها أخطاء مشتركة بين بلدان العالم الإسلامي في عصر المؤلف ، وربما بقي البعض منها الى اليوم . فمن ذلك قول العامة هذا اليوم (جمادى الأول) مثلاً — وهو خطأ كان شائعاً على عصر المؤلف في القرن العاشر ، ونبه عليه فقال : « جمادى الأولى والآخرة .. والعوام يستعملونها بالمعجمة

(*) سبق في أول البحث أن اشرنا الى أن لسان المتكلمين بالعربية في بلد غير عربي قد أصيب بآنحدار غريب ظهر في ما انتجه المعنيون باللغة . وقلنا هنا : ان هذا الأنحدار لم يكن آفة قاتله للعربية ، فالعربية راسخة ثابته ولكن الأنحدار شمل الالسن في مجتمع يتكلم اهله لغة قومية غير العربية
المؤلف

المكسورة ، ويصفونها بالأول ، فيكون فيها ثلاثة تحريفات .. الخ » (٣٣) .

ومنه قولهم (مسيلمة) بفتح اللام ، والصحيح كسرها ، ومنه السَّحُور بفتح السين ، والناس تقوله بالضم ... الخ ، ومثل هذا كثير في لسان العامة في عصرنا .

والخلاصة إن كتاب (ابن كمال باشا) يمثل صورة صادقة عن لغة عصر المؤلف ، وكان قد قصد الى « التنبيه على غلط الجاهل والنبيه » فأصاب كثيراً فيما قصد اليه .

ولئن كانت لنا عليه بعض التصحيحات التي وجدناه ينحرف بها عن جادة الصواب ، إن ذلك لقليل في جنب الكثير الصحيح . فمن وهمه القليل . -- مثلا -- تخطئة العامة بقولهم : « حق الشُّرب » بضم الشين ، في حين ذكر اللغويون أن الشين مثلثة : « شِرب ، شَرْب شُرب » مصدرها بالفتح ، وإسميتها بالكسر والضم (٣٤) .

وقد يقع (ابن كمال باشا) نفسه في الوهم في بعض عباراته ، ومن ذلك قوله : « ولو أنهم نقلوا هذه الألف الى موضعها فاستراحوا » (٣٥) . وكان عليه أن يقول : (لاستراحوا) ، لأن جواب شرط (لو) يقترن باللام ، لا بالفاء .

والحق أننا يمكن أن نُنصِف (ابن كمال باشا) بأكثر مما سبق ، فنقول : إنه واحد من القلائل الذين رفدوا البحث اللغوي العربي بالكثير من النظرات الأصيلة والاتجاهات الصحيحة . كما رفد المكتبة اللغوية العربية بمجموعة لايستهان بها من التصحيحات والتحقيقات . وقوّم كثيراً من الأوهام والأخطاء التي جازت على أبناء الضاد . فضلاً عن غيرهم ، فكان له في ذلك فضل تميز به مِنْ سائر علماء عصره القرن العاشر الهجري .

(٣٣) التنبيه ٥٧٣ الخطأ برقم : ٢٦ .
(٣٤) نفسه ٥٨٤ .
(٣٥) نفسه ٥٨٥ .